آفاق وسياقات
تشرين الأوّل ٢٠٢٤ / العدد ١ – ص. ١٠٤-١١٧

الطائفيّة ومعضلة التماسك الوطنيّ في لبنان

بشارة أبو حمد

عميد ركن، خدم في الجيش اللبناني منذ عام ١٩٩٣ حتّى عام ٢٠١١، انتقل بعدها إلى المديرية العامة للأمن العام. حائز دكتوراه في العلوم الدينيّة من جامعة القديس يوسف، ويتابع الدكتوراه في القيادة وإدارة الموارد البشريّة في الجامعة نفسها. يُدرّس القيادة واتّخاذ القرار، ومادّة إدارة الموارد البشريّة، في الجامعة الأنطونيّة.

خلاصة

تُظهر الهويّة الوطنيّة اللبنانيّة تعقّدًا متعدّد الأوجه بسبب التأثيرات التاريخيّة والدينيّة. أثّر الحكم الفرنسي بانحيازه للمسيحيّين وإنشاء «لبنان الكبير»، مما تناقض مع التطلّعات العربيّة للمسلمين. أدّى الميثاق الوطني إلى حلٍّ مؤقّت اعترف بالتوازن الطائفي، لكن الوحدة تفكّكت في حرب أهليّة مدمّرة. رغم اتفاق الطائف الذي اعترف بعروبة لبنان، يبقى النضال من أجل هويّة موحّدة قائمًا بسبب إرث النظام الطائفي والتأثيرات الإقليميّة، مما يشكّل تحدّيًا مستمرًّا لفكرة الوحدة الوطنيّة.

كلمات مفتاحيّة

الهويّة الوطنية اللبنانية – التأثير الفرنكوفوني – الكنيسة المارونية – القومية العربية – لبنان الكبير – الانتداب الفرنسي – النظام الطائفي – الميثاق الوطني – الحرب الأهلية – اتفاق الطائف.

Résumé

L'identité nationale libanaise révèle une complexité multifacette due aux influences historiques et religieuses. Le régime français a influencé par sa partialité envers les chrétiens et la création du «Grand Liban», contredisant les aspirations arabes des musulmans. Le Pacte national a abouti à une solution temporaire reconnaissant l'équilibre confessionnel, mais l'unité s'est effondrée dans une guerre civile destructrice. Malgré l'accord de Taëf qui a reconnu l'arabité du Liban, la lutte pour une identité unifiée persiste à cause de l'héritage du système confessionnel et des influences régionales, constituant un défi permanent à l'idée d'unité nationale.

Mots-clés

Identité nationale libanaise – Église maronite – nationalisme arabe – Grand Liban – mandat français – système confessionnel – Pacte national – guerre civile – accord de Taëf.

جاء في قصة «لست امرأة عربية» الواردة في كتاب «القمر المربع» للكاتبة غادة السمان ما يأتي: «أرى قطة تلد فأرًا ونمرًا وسنجابًا وأفعى وقطًّا من بطن واحد. أستيقظ مذعورة: كيف ستتعايش معًا؟ ولكن لماذا تتعايش؟...»[1].

هذه هي معضلة التماسك الوطني في لبنان التي لا تزالُ قائمة منذ العام ١٩٢٠ حتّى يومنا هذا. والمعروف أنَّ لبنان يجمعُ بينَ الأقليات الطائفية المسيحيَّة وتلك المسلمة. وَيُذكرُ أنَّ لكلّ شخص هويَّة وَشخصيَّة قانونيّة تميّزانه عن غيره، وَيحقّ له بتمثيل سياسيٍّ يعبّر عنهُ. وفي الوقت نفسه، تتميَّز البلاد بخصائص عامَّة كاللغة العربية، والتنوع الديني، والتقاليد العائلية المشتركة، والفخر المشترك بأحد أفضل المأكولات في العالم. وَأتاحت القواسم المشتركة أمام أفراد المجتمع الواحد اندماجًا وطنيًّا لا بأس به في فترتي الانتداب والاستقلال. وَيذكر أنَّ التماسُك الاجتماعي ظلَّ مقبولًا حتّى السبعينيّات، قبلَ أن يتحوَّل إلى حربٍ، ثمَّ إلى أزمة في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. وبالتالي، غدت الانقسامات السياسية والمجتمعية والطائفية والتدخل الخارجي تشكِّلُ دافعًا إلى انهيار الدولة. عندها، أيقنَ الشعب اللبناني أنَّهُ لن يعش حياةً كريمةً إلا إذا فرض قدرًا من الوحدة وأصرَّ على عيشه.

لبنان الكبير: الميثاق الوطنيّ ووهم الهويّة الوطنيّة

إن الفرضية التاريخية للهوية الوطنية اللبنانية هي فرضيَّة أسطورية[2] مبنية على ربط مجد فينيقيا السابق بالغرب، وهي مصبوغة باللون الفرنكوفوني. وَاصطدمت هذه الفكرة التي كوَّنها المسيحيّون عن الهويّة القومية بهويّةٍ قوميَّةٍ أخرى كوَّنها الإسلام، وهي مرتبطة بمجد الحضارة العربية والقومية العربية. إلّا أنَّ اعتبارات محلية وإقليمية ساعدت الطرفين على

(١) السمان، غادة، **القمر المربع – قصص غرائبية**، منشورات غادة السمان، بيروت، طبعة اولى، كانون أوّل ١٩٩٤، ص ٧٥.

(٢) لبناء إطارها النظري للعرق والقومية على مفهوم «المجتمعات المتخيّلة»، تصوّرت المناهج البنائية الاجتماعية الهويّة «كفكرة أو خطاب بدلًا من كونها وحدة اجتماعيّة يمكن ملاحظتها تجريبيًّا بسمات مثل اللباس أو اللغة أو التقاليد». تركّز دراساتهم على «تحديد العناصر، الواقعية أو غير ذلك، التي تساهم في بناء هويّة معينة. وهي تشمل استكشافات للظروف التي تتطوّر فيها الهويّات، والتغييرات التي تمرّ بها بمرور الوقت، والأهداف الاجتماعية والسياسية التي قد تنشأ من أجلها الهويات»:

Davis Thoma, C., *Revisiting Group Attachment: Ethnic and National Identity,* Political Psychology, Vol. 20, n° 1, March 1999, p. 25–26.

التوصُّل إلى حلٍّ وسطٍ بشأن هويّة لبنان الوطنية، وذلك، عن طريق الميثاق الوطني، المدعوم بنظام طائفي. وَيعبّر الاتّفاق المذكور عن الأسس الإيديولوجية والسياسية للهوية الوطنية.

وَفي الأوَّل من أيلول ١٩٢٠، أعلن المفوض السامي الفرنسي هنري غورو قيام دولة لبنان الكبير قائلًا:

> «أمام جميع سكان جبل لبنان، المجتمعين هنا من جميع المذاهب، الذين كانوا سابقًا جيرانًا، ولكنهم سيتحدون ابتداءً من هذا اليوم تحت رعاية أمة واحدة، متجذّرة في ماضيها، بارزة في مستقبلها؛ عند سفح هذه الجبال المهيبة، التي سادت في كونها معقل منيع للإيمان والحرية، فشكلت قوة أمتكم؛ على شواطئ هذا البحر الأسطوري، الشاهد على عظمة فينيقيا واليونان وروما، والذي حمل ذات مرة أجدادكم البارعين والمهرة والفصحاء عبر الكون؛ اليوم هذا البحر نفسه يجلب لكم بفرح تأكيد صداقة عظيمة وقديمة وحظ موفق من السلام الفرنسي. أمام كل هؤلاء الشهود على طموحاتكم ونضالاتكم وانتصاراتكم، وفي مشاركة لفخركم، أنا أعلن رسميًّا لبنان الكبير باسم الجمهورية الفرنسية، التي أحيي عظمتها وسلطتها، من النهر الكبير إلى أبواب فلسطين وقمم جبال لبنان الشرقية»[٣].

وَمنذ البداية، زادَ هذا البيان الجوهري في تاريخ لبنان الحديث، من غموض الهويّة الوطنيّة. وَالمعروف أنَّ بعضهم أشاد به، وبعضهم الآخر شوّهه، أمّا الآخرونَ فأدانوهُ. ورأى الموارنة أنَّ البيان أعلن عن العلاقة الطائفيَّة والسياسية القديمة أو «الأسطورية» التي تربطهم بفرنسا، الأمّ الحنون، كما فهموا أنّهُ عبَّر عن الجهد الذي بذلته الكنيسة المارونية في سبيلِ خلق هوية وطنية منفصلة عن العروبة. فضلًا عن ذلك، اعتقدوا أنّ البيانَ أشار إلى تطلُّعاتهم الوطنية، تمامًا كما تمّ التعبير عنها في الفينيقيَّة واللبنانيَّة، التي كانت رموزها تتغلغل في تراث الموارنة الجماعي، وذلك بفضل المؤسسات الفرنكوفونية.

وَمع بداية القرن التاسع عشر، بدأت فرنسا بمحاولة منهجية لتوثيق المجتمع المسيحي على أسس فكرية وثقافية فرنسية. فأسّس اليسوعيّون، بصفتهم الذراع الثقافية الفرنسية، سلسلة من المؤسسات التعليميَّة، أهمُّها جامعة القدّيس يوسف في بيروت التي أُنشئَت في العام ١٨٧٥، وَسرعان ما تطوّرت إلى ما يُعرف بالمركز الثقافي العقدي الذي يربط بيروت

(٣) Rabil R.G., *Greater Lebanon and the National Pact: The Elusiveness of National Identity.* In: *Religion, National Identity, and Confessional Politics in Lebanon, The Middle East in Focus*, Palgrave Macmillan, New York, 2011, p. 9-10. And, Ismail Adel, *Le Liban, Documents Diplomatiques et Consulaires Relatifs à L'Histoire du Liban*, Beirut, Éditions des Œuvres Politiques et Historiques, 1979, Vol. XIX, p. 18.

بباريس؛ إذ زرع **هنري لامينس** (Lammens Henri)[٤] في ذلك المكان البذور الإيديولوجية للهويّة المسيحية المستقلّة[٥].

وَنتيجةً لتأثُّر خرّيجي جامعة القدّيس يوسف الموارنة بجوّها الفكري آنذاك، سلّط هؤلاء الضوء على دور الأجداد الفينيقيين في تكوين الهويّة المسيحية، التي تمّ التعبير عنها في لبنان الكبير الحديث. وَنذكُر من أولئك الأشخاص، يوسف السودا الذي تحدَّث بشكل لا لبس فيه عن الأصول الفينيقيّة التي يتمتّع بها الشعب اللبناني، وعن مجد الثقافة الفينيقيَّة وتراث لبنان فقال: إن لدى كلّ دولة رغبة قوية في العودة إلى جذورها من خلال ربط مجد نسبها من ماضيها إلى حاضرها. تفتخر إيطاليا بكونها وريثة روما العظيمة بانتصاراتها ومجدها ورايتها؛ يمجّد اليونانيون نسبهم إلى سلالة هامة من شخصيات الإلياذة بشعرائها وفلاسفتها. يشكر العالم المتحضّر إيطاليا واليونان ويحترم أحفادهم وعظمة أجدادهم... وبما أنّ الأمة فخورة بجذورها وتستمدّ فضائلها الصالحة من ذرّيتها الصالحة، فهل يفتخر لبنان بتذكّره وتذكيرنا بأنّه مهد الحضارة في العالم التي ولدت على سفوح جباله ونضجت على شواطئه، ومن هناك حملها الفينيقيون إلى أقاصي المسكونة[٦].

وَفي أوائل القرن العشرين، أمسى هذا المنظار الذي يقوم على تمجيد فينيقيا ودورها البارز في الحضارة الغربية، وليس أقلّه اختراع الأبجديّة ونشرها، عبئًا على أصحاب النزعة الفينيقية في لبنان. وَمن أصحاب العقيدة الفينيقية ميشال شيحا وشارل قرم، اللذين اعتبرا أنّ التوجُّه الغربي للبنان وهويّته الوطنية يحتلّانِ جانبًا من الفينيقية. وَفي العام ١٩١٩، نشر قرم صحيفة «La Revue Phénicienne» التي أصبحت لسان حال من يمارس النشاط الفكري والسياسي المؤيّد للفكرة الفينيقية. وبعد ذلك، تأثَّرَ بموريس باريز[٧]، فكتب «La Montagne Inspirée»، الذي رأى فيه كثيرون تأليهًا للفينيقية[٨].

---

(٤) Lammens Henri, born on the 1st of July 1862 in Ghent- Belgium, died in Beirut, 23 April 1937), Jesuit and historian of Islam, from Belgian, Royal Academy for Overseas Sciences website: http://www.kaowarsom.be/en/notices_Lammens_Henri, Re-accessed: 17/11/2022.

(٥) Salibi Kamal, *Islam and Syria in the Writings of Henri Lammens,* edited by Lewis B. and Holt P. M., London, Oxford University Press, 1962, p. 330–342.

(٦) السودا، يوسف، **في سبيل لبنان**، مطبعة الأرز، طبعة ثانية، ١٩٢٤، ص ١٥-١٦.

(٧) استند مفهوم موريس باريز للقومية على الاعتزاز بالتقاليد والتراث، والروح الوطنية للكاثوليكية، والحتمية الجغرافية كعامل محدّد للطابع الوطني الفريد لفرنسا. كان مفهوم باريز بمثابة غذاء فكري للفينيقيين، الذين افتخروا بمجد تراثهم الفينيقي، المارونية الكاثوليكية، والطابع الوطني الفريد للبنان. والملاحظ أنّ عنوان كتاب شارل قرم مستوحى من كتابه. Barres Maurice, *La Colline inspirée*, Paris, Émile-Paul Frères, 1913.

(٨) Corm Charles, *La Montagne Inspirée ; Chansons de Geste,* Beirut, Editions de La Revue Phénicienne, 2e édition, 1964.

وَبالتوازي مع هذا الجهد الفكري من أجل إعادة ترسيخ أسطورة لبنان الفينيقية وخصائصها الوطنية، فإن عمل الكنيسة المارونية الدؤوب لخلق هويّة مسيحية غير عربية منفصلة عن العروبة، قد بلغ ذروته في توفير الأساس السياسي للفكرة الفينيقية في لبنان الكبير. وقد تجلّى ذلك في الدور الحاسم الذي قام به البطريرك الماروني إلياس حويك آنذاك، إذ ترأس الوفد اللبناني إلى مؤتمر السلام في فرساي، حيث دعا إلى إنشاء لبنان الكبير مبررًا مستندًا في الأساس إلى الفكرة الفينيقية[٩]. كذلك، لم يقتصر بيان غورو على تجسيد التطلّعات الوطنية للكنيسة المارونية والفينيقيين، بل ساعد أيضًا على إضفاء الطابع اللبناني على الأسطورة الفينيقية الأصليَّة، على الرغم من رفض المجتمعات غير المسيحيَّة مثلَ هذه المفاهيم.

وَلم يكن جبل لبنان في ذلك الوقت، وهو مسكن غالبية الموارنة، مجديًا اقتصاديًّا ككيانٍ سياسيٍّ بمعزل عن المدن الساحلية التي انطلق منها البحارة الفينيقيون. فضمّت الجهات المعنيّة منطقة البقاع الخصبة والمناطق المحيطة بالمدن الساحلية طرابلس وصيدا وصور، مع مجتمعاتها السنية والشيعية الكبيرة، إلى الجبل لتشكيل لبنان الكبير[١٠]. وَشكّلت هذه الحالة تحدّيًا لمؤيّدي لبنان الكبير، إذ لم يكن كثيرون في الدولة الجديدة مهيّئين أو مستعدّين للتوافق على المفهوم الوطني للبنان الكبير. ونتيجةً لذلك، نما مفهوم اللبنانية كردّ على الفينيقية. وعلى عكس الفينيقية، التي كانت جاذبيتها محصورة في قاعدة مسيحية، فإن اللبنانية، كانت تهدف إلى تعزيز النزعة الوطنية والقومية اللبنانية، من أجل مناشدة المسلمين عبر فكرة وطنية لبنانيَّة شاملة[١١].

وَبمجرّد نيل الفرنسيّين حقّ الانتداب، شرعوا إلى وضع الأُسس المناسبة للنظام السياسي للبنان. فأصدروا سلسلة من القرارات، من بينها إنشاء مجلس تمثيلي وقانون انتخابي ودستور عام ١٩٢٦. وَساهمت تلك الأمور كلّها في تشكيل النظام الطائفي في لبنان. وَبرزَ تقسيم التمثيل في إدارة الدولة الجديدة على أساس طائفي في صميم هذا النظام، حيث تمَّ تمثيل المجتمع حسب التركيبة السكانية الطائفية[١٢]. في الواقع، كان ذلك النظام نسخة منقّحة عن

(٩) Hoyek E. P., « Les Revendications du Liban, Mémoire de La Délégation Libanaise a la Conférence de la Paix », *La Revue Phénicienne,* Beirut, Edition Maison D'Art, Juillet 1919.

(١٠) Traboulsi Fawwaz, *A History of Modern Lebanon,* Pluto Press, London, Second Edition, 2012.

(١١) Salameh Franck, *Language, Memory and Identity in the Middle East: The Case of Lebanon,* New York, Lexington Books, 2010, p. 47.

(١٢) عدّل الفرنسيون بعض هذه المراسيم بشكل منهجي، وأصدروا قرارات جديدة بهدف إصلاح النظام بما

النظام السياسي الذي كان معتمدًا خلال نظام المتصرفية في جبل لبنان (١٨٦١-١٩٢٠) في إبّان الحكم العثماني[١٣].

في البدء، رفض المسلمون المفهوم الوطني للبنان الكبير على الفور، وعملت النخب السنيَّةُ المعارضة ضد تشكيل لبنان الكبير، ودعمت الملك فيصل كحاكم لبلاد الشام (سوريا الكبرى)[١٤]. كما نظَّم المسلمونَ سلسلةً من المؤتمرات كرّروا فيها رفضهم الأمر الواقع في لبنان الكبير، وقدّموا عريضةً للمفوَّض السامي الفرنسي بشأن شكاواهم. وَفي الوقت نفسه، حاولوا تنسيق جهودهم مع جهود القوميين العرب في سوريا، وبالتحديد مع قادة الكتلة الوطنية[١٥]. وَلكنّ مزيجًا من العوامل الداخلية والخارجيَّة خَّفف من الجهد المبذول في متابعة نشاطهم السياسي.

وَبشكلٍ عامٍ، أثَّرت أربعةُ عوامل على النظرة السياسيَّة للنخبة السِّنِّية، أولًا، ازدادَ قلقُ القيادة السياسيَّة بشأن الواقع المتنامي الذي تسبِّبُهُ خدمات مؤسّسات الانتداب، وقد ظهر ذلك من خلال التماس قدَّمهُ السنّة للمفوض السامي، مطالبين بالمعاملة المتساوية بين المناطق[١٦]. ثانيًا، بدأت الكنيسة المارونية في الثلاثينيات من القرن الماضي تنتقد السياسات الفرنسيَّة إلى حدِّ المطالبة باستقلالِ لبنان الكامل[١٧]. وَثالثًا، بدأت في أواخر الثلاثينيات بعض القيادات السياسيَّة المارونية، كبشارة الخوري، تدعو إلى اعتماد سياسة مؤيّدة للعرب، فساعدت القاعدة المتنامية لهذا التطوُّر داخل المجتمع المسيحي على الحدّ من التوتُّرات السنيَّة المسيحيَّة[١٨]. وأخيرًا، أُصيبت القيادة السنيَّة بخيبةِ أملٍ من سياسات قادة الكتلة الوطنية في

يتماشى مع سياساتهم العامة، بما في ذلك، على سبيل المثال، إلغاء مجلس الشيوخ (مجلس الشيوخ) في مجلس النواب (مجلس النواب): رباط، إدمون، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، منشورات الجامعة اللبنانية، الجزء الثاني، ٢٠٠٢، ص ٦٢١.

(١٣) رستم، أسد، **لبنان في عهد المتصرفية**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣.

(١٤) el-Khazen Farid, *The Communal Pact of National Identities: The Making and Politics of the 1943 National Pact*, Oxford, Centre for Lebanese Studies, October 1991, p. 10.

(١٥) Khoury Philip, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism,* 1920–1945, Princeton, Princeton University Press, 1987.

(١٦) Maktab Rania, "The Lebanese Census of 1932 Revisited. Who are the Lebanese?", *British Journal of Middle Eastern Studies,* Vol. 26, n° 2, 1999, p. 219–241.

(١٧) أُنظر البيان الموجه إلى المفوض السامي الفرنسي من قبل البطريركية في ٦ فبراير ١٩٣٥، في رباط، «التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري»، ص ٦٦٢-٦٦٣.

(١٨) el-Khazen Farid, *The Communal Pact of National Identities,* op. cit., p. 34–37.

سوريا، إذ شعرت بالخيانة بعد أن تفاوض قادة الكتلة الوطنية على معاهدة مع فرنسا لا تشمل الأراضي المتنازع عليها المضافة إلى لبنان(١٩).

وَعزَّز هذا الأمر أهميّة الاتجاه الذي دعا إليه رياض الصلح المتمثّل في تمكُّن لبنان المستقلّ من أن يحقِّق الوحدة الداخليَّة كشرط مسبق للوحدة العربية(٢٠). ونتيجةً لذلكَ، وجد بشارة الخوري في رياض الصلح حليفًا يَدعم رؤيته الوطنيَّة. وكانت النتيجة الطبيعيّة لهذا التحالف ولادة الميثاق الوطني كصيغة سياسيَّة للنظام الطائفي اللبناني والهويَّة الوطنية «الإشكالية»، وسيكون لبنان «ذا وجه عربي» ويتجلّى شعار «لا شرق ولا غرب»(٢١).

لا شكَّ في أنَّ التعاون الماروني السنّي أثبت أنّه حاسم في إنشاء الميثاق الوطني الذي حقَّق الاستقلال. ومع ذلك، لم يكن للمجتمعات الأخرى، لا سيَّما الجالية الشيعيَّة، سوى دورٍ خجول، إن وجد، وَذلك في عملية إبرام الميثاق الوطني. لقد اعتبرت الإمبراطورية العثمانية «السنية» المذهب الشيعي بدعة، فحُرِمَ المجتمع الشيعي من أن يُعترف به رسميًّا كمجتمعٍ ذي عقيدة مذهبيَّة شرعيَّة في الإمبراطورية. وبالتالي، واجه لبنان تمييزًا موهنًا، وعانى من حرمان سياسي واجتماعي واقتصادي، كما حُرِمَ من الامتيازات الممنوحة للمجتمعات المعترف بها في الإمبراطورية العثمانية. بالإضافةِ إلى ما ذُكر، كان عليه أن يخضع للقانون الحنفي كملجأ قانوني لقضايا أحواله الشخصية.

من هنا، نظر الشيعة بإيجابيَّة إلى لبنان الكبير، وظهر ذلك من خلال مشاركتهم مبكرًا في المؤسّسات خاصة بعد اعتراف السلطات الفرنسية رسميًّا بالطائفة الشيعية كطائفة مستقلّة، وبعد أن أقرَّت مدرسة الفقه الجعفري كهيئة حاكمة للشؤون الدينية الشيعيَّة(٢٢). وَفي المقابل أيَّدت معارضة شيعيَّة القوميين العرب الذين دعموا الملك فيصل وعارضوا الفرنسيين، وانضمَّ آخرون إلى الأحزاب العلمانيَّة واليساريَّة. وَلكن بحلول أواخر عشرينيات القرن

(١٩) Khoury Philip, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, op. cit.,* p. 486–493.

(٢٠) رباط، **التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري**، ص ٦٦٣-٦٦٦.

(٢١) ظهر مصطلح «لا شرق ولا غرب» عند الرئيس بشارة الخوري، حيث دعا إلى علاقة خاصة مع العالم العربي. أما مصطلح «الوجه العربي» المشهور ظهر للمرة الأولى في خطاب رياض الصلح في ٧ أكتوبر ١٩٤٣، والذي يُعَدّ إعلانًا رسميًّا عن الميثاق الوطني. أُنظر نصّ الخطاب في: الجسر، باسم، «ميثاق ١٩٤٣ لماذا كان؟ وهل سقط؟»، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٨٢-٤٩٥.

(٢٢) Rondot Pierre, *Les Institutions Politiques du Liban, des Communautés Traditionnelles a L'état Moderne,* Paris, Imprimerie Nationale, 1947, p. 65–66.

العشرين، ظهر دعمٌ واسع النطاق في المجتمع الشيعي، في كلٍّ من جبل عامل والبقاع، للبنان الكبير، حيث بدأ العديد من وجهاء الشيعة يعترفونَ بتلك القيمة السياسية كونهم مجتمعًا كبيرًا في لبنان، بدلًا من أقلية

في العالم العربي السنّي الأكبر[٢٣]. في الوقت نفسه، عزَّز تأسيس المؤسّسات الشيعية من قوة علماء الدين وعمل كوسيلة تكامل مع الدولة اللبنانية[٢٤].

وَمن الواضح أنَّ الميثاق الوطني قد ساهمَ في إنجاز مصالحة جماعية في ظروف خاصة، وتحقيق وحدة وطنية، لكنّه لم يعزِّز ولم يخلق هويّة وطنية. كان الميثاق مبنيًّا على حلٍّ وسطٍ، مسترشدًا بالافتراضات الخاطئة التي تقول إنَّ المسلمين سيُعرِّبونَ المسيحيين، بينما المسيحيون سوف يُلَبنِنونَ المسلمين. لقد أبرمت النخب المسلمة والمسيحية الميثاق الوطني، تاركةً الجماهير إمّا غريبة عن عمليَّة الوفاق الوطني أو ممزَّقة بسبب تعدُّد الإيديولوجيات القوميَّة والسوريَّة والعربيَّة.[٢٥]

وفي تعليقٍ على الميثاق الوطني، نشر جورج نقاش[٢٦] مقالًا بعنوان «نفيان لا يصنعان أمة» (Deux négations ne font pas une Nation) ورد فيهِ ما يأتي: «أيّ نوع من الوحدة يمكن أن يستمدّ من هذه الصيغة؟ من السهل رؤية ما لا يريده نصف اللبنانيين، ومن السهل رؤية ما لا يريده النصف الآخر. لكن ما يريده النصفان في الواقع لا يمكن للمرء رؤيته... وفي محاولة لرفض كلّ من الشرق والغرب، انتهى قادتنا إلى فقدان البوصلة....». ومع ذلك يقول فريد خازن: «إنّ الميثاق الوطني ... كان آخر بقايا العصر الليبرالي في السياسة العربية التي انتهت

(٢٣) Shanahan Rodger, *The Shi'a of Lebanon: Clans, Parties and Clerics,* London, I.B. Tauris, 2005, p. 29–32.

(٢٤) للحصول على تقرير مفصل عن الشيعة خلال الانتداب الفرنسي أُنظر:
Chalabi Tamara, *The Shi'is of Jabal Amil and the New Lebanon: Community and Nation-State 1918–1943,* New York, Palgrave Macmillan, 2006.

(٢٥) على سبيل المثال، دعا الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى القومية السورية، على عكس حزب البعث الذي دعا إلى القومية العربية.

(٢٦) كان جورج نقاش (١٩٠٤–١٩٧٢) من أبرز الصحفيين اللبنانيين. مؤسّس المشرق (الآن l'Orient-le Jour) في عام ١٩٢٥، أدّى أيضًا دورًا سياسيًّا بارزًا. شارك في عام ١٩٣٦ في تأسيس حزب الكتائب الذي انسحب منه في العام التالي. شغل عدّة مرّات منصب وزير وسفير لبنان في باريس، دخول الموقع في تاريخ ٢/ ١٠/ ٢٠٢٠:
« Deux négations... », Le Monde diplomatique, Septembre 1982, page 10 // https://www.monde-diplomatique.fr/36936.

على أيدي الديكتاتوريات والثورات العسكرية. ومع ذلك، مع تفكُّك لبنان وظهور مجموعة متنوّعة من معاهدات ما بعد الحرب، تتراوح من صيغ الاتحاد إلى «الحلول الإسلامية»، كان الميثاق الوطني لعام ١٩٤٣، ولا يزال، ورقة عمل أولية لا غنى عنها والتي بدونها لا يمكن إعادة تشكيل مستقبل لبنان».[٢٧]

النموذج المعضلة

منذ العام ١٩٢٠، تمّ جمع مواطني الدولة القومية المنشأة حديثًا وفقًا للانتماء الديني، فحافظ هذا النظام على أهمية الدين لأنّه العنصر الأوّل الذي يضمّ القيم وهو عامل يحدِّد أُسلوب العيش. كذلك، تمّ تعزيز الوظيفة الحيويَّة للطائفة بوصفها «التنظيم الاجتماعي الأساسي الذي يتمّ من خلاله صيانة الأمن السياسي»[٢٨]. هكذا، وُلد لبنان كدولة قوميَّة مرتكزة على مجموعة من الطوائف، وَتمّ الحفاظ على تقاليدها وقيمها وأمنها السياسي في النظام وفقًا لصيغة طائفية متوازنة[٢٩].

وَكرّس الدستور اللبناني لعام ١٩٢٦ النظام الكونفدرالي السائد آنذاك، من خلال الاعتراف بمختلف طوائف البلاد. وفي الوقت نفسه، اعتبرت المادّة ٧ من الدستور المذكور أنَّ اللبنانيين جميعهم مُتساوونَ أمام القانون. كما كفلت المادّة ٩ احترام قوانين الأحوال الشخصية والمصالح الدينيّة للجماعات اللبنانية، ومنحتهم المادّة ١٠ حرية التعليم[٣٠]. ونصّت المادّة ٩٥ من الدستور عينِه على ما يأتي: «بصورة مؤقّتة، والتماسًا للعدل والوفاق، تُمثّل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة، دون أن يؤول ذلك إلى الإضرار بمصلحة الدولة»[٣١].

---

(٢٧) El-Khazen Farid, *The Communal Pact of National Identities,* op. cit., p. 68.

(٢٨) Hudson Michael C., *The Precarious Republic: Political Modernization in Lebanon,* Boulder, CO, Westview Press, 1985, p. 21; Muhammad A. Faour, "Religion, Demography, and Politics in Lebanon", *Middle Eastern Studies*, Vol. 43, n° 6, November 2007.

(٢٩) Hess Clyde G., Jr. and Bradman Herbert L., Jr., "Confessionalism and Feudality in Lebanon", *Middle East Journal,* Vol. 8, n° 1, Winter 1954.

(٣٠) النصّ الكامل للدستور اللبناني متاح على موقع مجلس النواب اللبناني على الإنترنت، http://www.lp.gov.lb/SecondaryAr.Aspx?id=12، دخول الموقع بتاريخ ٦ كانون أول ٢٠١٩.

(٣١) عدلت المادّة ٩٥ في عام ١٩٩٠ بموجب وثيقة التفاهم الوطني: «خلال المرحلة الانتقالية:
أ – تمثل الطوائف بصورة عادلة في تشكيل الوزارة.

وَعلى الرغم من أسس التوازن الاجتماعي، لم يحلّ النظام الطائفي الجديد المسائل العالقة المتعلقة بالهويّة والتوجُّه السياسي. فبشكل عام، تماهت النخبة المسلمة مع القومية العربية، وتطلَّعت إلى السيادة الوطنيَّة في إطار الوحدة مع سوريا، في حين تطلَّعَ المسيحيَون إلى لبنان السيادي وَالمستقلّ، ذي الهوية الفينيقية اللبنانية والرؤية الثقافية الغربيّة. لذلك عمدت النخبة من كِلا الطرفين إلى وضع برنامج سياسي وطني يهدف إلى تحقيق الاستقلال عن الفرنسيين وجمع الطوائف المختلفة معًا، حيث يتخلّى المسيحيون عن الوصاية الغربية والمسلمون عن ميلهم إلى الوحدة مع سوريا. هذا هو الميثاق الوطني الشهير الذي أعلن أنّ «لبنان دولة مستقلّة ذات وجه عربي».

لم يشكِّل الميثاق الوطني الهوية الوطنية[٣٢] للبنان، فقد كان مبنيًّا على حلٍّ وسط يسترشد بالافتراضات الكاذبة بأنّ المسلمين سيعرّبون المسيحيين والمسيحيين سيلبننون المسلمين[٣٣]. فهذا الميثاق كان يهدف إلى استرضاء أيديولوجيات المجتمع المتناقضة. وَمن المسلَّم به أنَّ الدستور يطبّق النظام الطائفي، وقد كرّس الميثاق الوطني الطائفية السياسية على الرغم من أنه وفَّر إحساسًا بالوحدة الوطنية في ظلّ ظروف محلّية وإقليمية معينة.

لكن تلك الوحدة انهارت في أكثر من مناسبة، وذلك، تحت ثقل ما أطلق عليه مالكولم كير «الحرب الباردة العربية»[٣٤] والقومية العربية. فباسم القومية العربية، كان اليساريون والسوريون والعرب أكثر اهتمامًا بإزالة نظام تهيمن عليه المارونية السياسية من إصلاحه، وأصبح الميثاق الوطني مجرّد مصطلح وهمي حيث انقسمت البلاد على أسس طائفية،

ب – تلغى قاعدة التمثيل الطائفي ويعتمد الاختصاص والكفاءة في الوظائف العامة والقضاء والمؤسسات العسكرية والأمنية والمؤسسات العامة والمختلطة وفقا لمقتضيات الوفاق الوطني باستثناء وظائف الفئة الأولى فيها وفي ما يعادل الفئة الأولى فيها وتكون هذه الوظائف مناصفة بين المسيحيين والمسلمين دون تخصيص أية وظيفة لأيّة طائفة مع التقيد بمبدأي الاختصاص والكفاءة».

(٣٢) يؤكّد نهج علم النفس الاجتماعي على جوهر الهوية الوطنية كاتّحاد جماعي فردي. «أنه . . . النظرة الذاتية للمجموعة، بدلًا من الخصائص الملموسة، التي تعتبر جوهرية في تحديد وجود أو عدم وجود أمّة»:
Walker Connor, *Ethno nationalism: The Quest for Understanding*, New Jersey, Princeton University Press, 1994, p. 43.

(٣٣) Phares Walid, *Lebanese Christian Nationalism: The Rise and Fall of an Ethnic Resistance,* Boulder, CO, Lynne Rienner Publishers, 1995, p. 89.

(٣٤) Kerr Malcolm H, *the Arab cold war: Gamal 'Abd al-Nasir and his rivals, 1958-1967,* London, Oxford University Press for the Royal Institute of International Affairs, 1967.

وبرزت بيروت كأرض معركة جديدة للصراع العربي الإسرائيلي والتشدّد الفلسطيني. وعندما مزّقت الحرب الأهلية لبنان واجتمعت الجيوش الأجنبية خلف تحالفات سياسية وطائفية هشَّة، حُكم على محاولات المصالحة الوطنية بالفشل.

في خضم الحرب الأهلية عام ١٩٨٥، تحدَّث الرئيس أمين الجميِّل عن الانتماء الديني والهوية الوطنية قائلًا: « كلنا لبنانيون... لا توجد أكثرية في لبنان الحديث: نحن بلد الأقليات. لا توجد أكثرية سياسية، ولا أكثرية اقتصادية، بل أكثرية اجتماعية. كان الانتماء الديني هو العامل الأساسي للهوية الفردية، ويوافق معظم اللبنانيين اليوم على أنّ النظام السياسي الذي طوّرناه كان جامدًا للغاية، حيث رسم خطوطًا طائفية حول العديد من المشاكل التي لم يكن لها أيّ أهمّية طائفية. رغم أهمية الدين عند اللبنانيين، نحن نعلم، ودائمًا ما كنّا نعلم بأنّ هويتنا هي لبنانية. لا يوجد لبنان مسيحي ولا لبنان مسلم... يوجد فقط لبنان واحد»[٣٥].

وللأسف، سقطت هذه الكلمات في آذان صمّاء، حيث انغمس لبنان في الصراع الأهلي، وانهارت محاولات المصالحة الوطنية جميعها حتّى العام ١٩٨٩. وفي العام نفسه، توصَّل النواب اللبنانيون، بناءً على إلحاح المملكة العربية السعودية وسوريا، وبضغط منهما، وبرعاية أميركية، إلى تسوية دستورية، عُرفت بوثيقة التفاهُم الوطني، أي اتّفاق الطائف، وهي تسوية ساعدت على إنهاء الحرب الأهلية في العام ١٩٩٠. عدّل اتّفاق الطائف الدستور والميثاق الوطني، فتمَّ تحديد لبنان كدولة عربية ووطن نهائيّ لأبنائه جميعِهم.

مصادر ومراجع

- السمان، غادة، **القمر المربع – قصص غرائبية**، منشورات غادة السمان، بيروت، طبعة اولى، كانون أوّل ١٩٩٤.
- النصّ الكامل للدستور اللبناني على موقع مجلس النواب اللبناني على الإنترنت، http://www.lp.gov.lb/SecondaryAr.Aspx?id=12، دخول الموقع بتاريخ ٦ كانون أول ٢٠١٩.
- رباط، **التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري**.
- الجسر، باسم، «ميثاق ١٩٤٣ لماذا كان؟ وهل سقط؟»، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٨.
- البيان الموجه إلى المفوض السامي الفرنسي من قبل البطريركية في ٦ فبراير ١٩٣٥، في رباط، «التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري».

(٣٥) Gemayel Amine, "Lebanon: The Prospects: The Price and the Promise", *Foreign Affairs,* Vol. 63, n° 4, Spring 1985, p. 760.

– رباط، إدمون، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، منشورات الجامعة اللبنانية، الجزء الثاني، ٢٠٠٢.
– رستم، أسد، **لبنان في عهد المتصرفية**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣.
– السودا، يوسف، **في سبيل لبنان**، مطبعة الأرز، طبعة ثانية، ١٩٢٤.

- Barres Maurice, *La Colline inspirée,* Paris, Émile-Paul Frères, 1913.
- Chalabi Tamara, *The Shi'is of Jabal Amil and the New Lebanon: Community and Nation-State 1918–1943,* New York, Palgrave Macmillan, 2006.
- Corm Charles, *La Montagne Inspirée; Chansons de Geste*, Beirut, Editions de La Revue Phénicienne, 2e édition, 1964.
- el-Khazen Farid, *The Communal Pact of National Identities: The Making and Politics of the 1943 National Pact*, Oxford, Centre for Lebanese Studies, October 1991.
- Hudson Michael C., *The Precarious Republic: Political Modernization in Lebanon*, Boulder, CO, Westview Press, 1985.
- Ismail Adel, *Le Liban, Documents Diplomatiques et Consulaires Relatifs à L'Histoire du Liban*, Beirut, Editions des Œuvres Politiques et Historiques, 1979, Vol. XIX.
- Kerr Malcolm H, *the Arab cold war: Gamal 'Abd al-Nasir and his rivals, 1958-1967*, London, Oxford University Press for the Royal Institute of International Affairs, 1967.
- Khoury Philip, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism*, 1920–1945, Princeton, Princeton University Press, 1987.
- Phares Walid, *Lebanese Christian Nationalism: The Rise and Fall of an Ethnic Resistance*, Boulder, CO, Lynne Rienner Publishers, 1995.
- Rabil R. G., *Greater Lebanon and the National Pact: The Elusiveness of National Identity. In: Religion, National Identity, and Confessional Politics in Lebanon*, The Middle East in Focus, Palgrave Macmillan, New York, 2011.
- Rondot Pierre, *Les Institutions Politiques du Liban, des Communautés Traditionnelles a L'état Moderne*, Paris, Imprimerie Nationale, 1947.
- Salameh Franck, *Language, Memory and Identity in the Middle East: The Case of Lebanon,* New York, Lexington Books, 2010.
- Salibi Kamal*, Islam and Syria in the Writings of Henri Lammens*, edited by Lewis B. and Holt P. M., London, Oxford University Press, 1962.
- Shanahan Rodger, *The Shi'a of Lebanon: Clans, Parties and Clerics*, London, I.B. Tauris, 2005.

- Traboulsi Fawwaz, *A History of Modern Lebanon*, Pluto Press, London, Second Edition, 2012.
- Walker Connor, *Ethno nationalism: The Quest for Understanding*, New Jersey, Princeton University Press, 1994.
- « Deux négations... », Le Monde diplomatique, Septembre 1982, page 10 // https://www.monde-diplomatique.fr/36936.
- Davis Thoma, C., *Revisiting Group Attachment: Ethnic and National Identity*, Political Psychology, Vol. 20, n° 1, March 1999.
- Faour Muhammad A., "Religion, Demography, and Politics in Lebanon", *Middle Eastern Studies*, Vol. 43, n° 6, November 2007.
- Gemayel Amine, "Lebanon: The Prospects: The Price and the Promise", *Foreign Affairs*, Vol. 63, n° 4, Spring 1985.
- Hess Clyde G., Jr. and Bradman Herbert L., Jr., "Confessionalism and Feudality in Lebanon", *Middle East Journal*, Vol. 8, n° 1, Winter 1954.
- Hoyek E. P., « Les Revendications du Liban, Mémoire de La Délégation Libanaise a la Conférence de la Paix », *La Revue Phénicienne,* Beirut, Edition Maison D'Art, Juillet 1919.
- Maktab Rania, "The Lebanese Census of 1932 Revisited. Who are the Lebanese?", *British Journal of Middle Eastern Studies,* Vol. 26, n° 2, 1999.